

وبالوالدين إحساناً

إيمان بديع عبد ربه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

للوالدين فضل عظيم، وقد أكد الله لنا الوصية بهما في كتابه، وجعل ذلك من أصول البر، التي اتفقت عليها الأديان جميعاً.

وإذا بنا في زمن العقوق هذا، نرى جيلاً لا يهاب الوالدين، ولا يحسن إليهما. بل على العكس من ذلك تماماً، نرى جيل الإساءة إليهما، وعدم احترامهما، ونكران فضلهما، والعيرة والتأفف منهما.

ونجد لبعض الأفكار الناشئة في هذا العصر، فيما يتعلق بالتربية، أثرها في تقليص الحواجز والموانع، التي تقف في وجه الابن عن اختراق مكانة الأبوة والأمومة، والاعتداء على قدسيتها وحرمتها.

إن البعد عن التربية الإسلامية الصالحة والسليمة، والإمعان في دلال الأولاد، وتحقيق رغباتهم دون قيود أو حساب. بالإضافة إلى أثر وسائل الإعلام، وطغيان الأفكار الغربية، واختراقها مجتمعاتنا والجهل بقدر الوالدين، وبالعبوة المترتبة على عقوقهما في الدنيا والآخرة. كل ذلك وأسباب أخرى أدت إلى جيل نرى ندرة البر فيه.

وهذا البحث إن هو إلا دعوة صغيرة للعودة إلى ما أمر به الله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ، للإحسان للوالدين وإكرامهما ومعرفة حقهما.

المبحث الأول

بر الوالدين والدعوة إليه

المطلب الأول: معنى البر وحكمه

البر من الكلمات الجامعة لخيري الدنيا والآخرة.

وبر الوالدين يعني الإحسان إليهما، وتوفية حقوقهما، وطاعتهما في أغراضهما في الأمور المندوبة والمباحة، لا في الواجبات والمعاصي. والبر ضد العقوق. والعقوق لغة من العق وهو القطع. وشرعاً: كل فعل وقول يتأذى به الوالدين من الولد.

الوالدان: هما الأب والأم، سواء كانا من نسب أو رضاع، مسلمين كانا أم كافرين... وإن عليا. فالأجداد والجدات، آباء وأمهات. سواء كانوا من قبل الأب أم الأم، والحالة بمنزلة الأم كما صح ذلك في الخبر.

حكم بر الوالدين: هو فرض واجب، وعقوقهما حرام من الكبائر⁽¹⁾.

وقد أوصى الله عز وجل ببر الوالدين بصورة أمر وإلزام.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا {23} وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا {24} (2).

قضى: أمر وألزم وأوجب... وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر.

الأف: الاحتقار والاستصغار. من الأف وهو عند العرب القلة والتأفيف هو أدنى مراتب القول السيئ⁽³⁾.

المطلب الثاني: الدعوة إلى البر في القرآن والسنة. وقد ورد الأمر الإلهي بالإحسان إلى

الوالدين في سورة النساء: **وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا {36}** (4).

وفي سورة الأنعام: **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ مَّنْ نَّرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {151}** (5).

(1) قنصو، عثمان عمر: وبالوالدين إحساناً، ص 19.

(2) الإسراء: 23-24.

(3) الشهاوي، مجدي محمد: من فاته بر والديه، ص 7.

(4) النساء: 36.

(5) الأنعام: 151.

وفي سورة العنكبوت: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {8}** (1).

وفي سورة الأحقاف: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {15}** (2).

لقد جعل الله عز وجل رتبة بر الوالدين اثر رتبة توحيد الله وعبادته، لأن الله هو المسبب الحقيقي لوجود الإنسان وعيشه وارتزاقه، والوالدان هما السبب الجعلي والظاهري لكل من الوجود والعيش، فئن كان المقتضي لعبادة الله أنه الخالق والمنعم الحقيقي، فإن المقتضي لبر الوالدين ما قضت به حكمة الله من أن يكون وجود الإنسان بهما ونشأته عن طريق رعايتهما (3).

ويستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء، وذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل. وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية. إلى الجيل الذاهب!. ومن ثم تحتاج النبوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات. إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وهما مع ذلك سعيان فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام. إلى الزوجات والذرية... وهكذا تندفع الحياة. ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليدذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف.

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله (4).

(1) العنكبوت: 8.

(2) الأحقاف: 15.

(3) البوطي، محمد سعيد رمضان: من روائع القرآن، ص 294.

(4) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج 4، ص 2221.

ثم يبين الله عز وجل المقصود بالإحسان بقوله: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** {23} (1).

فمهما وجدت أن الشيخوخة قد دبت إلى أحد من أبويك، فليكن موقفك منهما في كل الظروف والأحوال موقف الراحم الشفوق والخادم المحب، وأن لفظ عندك تثبت في إحساس المخاطب معنى هائلاً يثير فيه النزوع إلى الشفقة والرقّة والعطف، فالآية تصور بهذه الكلمة كيف أن الكبر والضعف قد وضع كلاً من الوالدين في كنف الابن وتحت رعايته بعد أن كان الابن هو الضعيف الذي يعيش في كنفهما وتحت رعايتهما (2).

لقد أوصت الآية بالوالدين في حال الكبر، لأن الوالدين حال شباهما وقوتهما ليسا مظنة الإهانة والإهمال، ولا مجال التأفف والتضجر منهما. فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة، بل العكس هو الصحيح، نرى الأولاد في هذه الحال يتقربون للآباء، ويتمنون رضاهم لينالوا من خيرهم.

لكن حالة الكبر، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعاقة والحاجة والضعف، فبعد أن كان معطياً أصبح أخذاً، وبعد أن كان عائلاً أصبح عالة (3). **فلا تقل لهما أف** وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب، ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضييق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب.

وقل لهما قولاً كريماً: وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشي بالإكرام والاحترام (4). ثم زاد الأمر بالإحسان إلى الوالدين تأكيداً، فصور ما ينبغي أن تكون عليه حال الولد من والديه دائماً، وأخرج معنى الرحمة بهما والإحسان إليهما والتواضع لهما في مظهر شيء متخيل محسوس مبالغة في الالتزام به والدعوة إليه، فقال **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** فقد صور الذل المأمور به بطائر خرّ هاوياً إلى الأرض، ثم صوّر مبالغة وضوح الذل والتواضع بنشر هذا الطائر مع ذلك جناحيه يخفضهما إلى الأرض.

(1) الإسراء: 23.

(2) البوطي، محمد سعيد رمضان: من روائع القرآن، ص 294.

(3) الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ص 8992.

(4) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج 4، ص 221.

بيد أنه استدرك، كي لا يحسب أنه ذل الحطّة والصغار، وهو ما ينهى عنه الإسلام، ولا يمكن أن يأمر به، فقال: من الرحمة، أي بسبب الرحمة بهما، وهو شرف لك وليس صغار عليك⁽¹⁾.

وتؤكد الآيات القرآنية على البر بالوالدة من خلال بيان ما تقاسيه الأم من مرض وضعف حال الحمل والإرضاع فضلاً عن التربية والرعاية، كذلك من خلال ذكر مشقة الوضع وآلامه. ففي سورة الأحقاف يقول سبحانه وتعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ {15}

(2)

وفي سورة لقمان: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ {14} (3).

لقد خصصت الآيات الكريمة الأم بعد الوصية بالوالدين لأن إحسان الأم لولدها إنما هي في مرحلة لا يدركها الابن، ففترة الحمل والمهد، لم يكن للطفل إدراك للجهد الذي تبذله ولكن بمجرد أن يعقل ويتفتح وعيه، يجد أباه يحقق كل طلباته، ويكده من أجل الأسرة.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أهلك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» (4).

وقد خص الرسول ﷺ الأم في هذا الحديث لأن العقوق إليها أسرع لضعفها، ولينبه أن بر الأم مقدم على بر الأب (5).

المطلب الثالث: بر المشرك والضال من الآباء

(1) البوطي، محمد سعيد رمضان: من روائع القرآن، ص 294.

(2) الأحقاف: 15.

(3) لقمان: 14.

(4) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، الجزء الثامن، كتاب: الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم الحديث 855، ص 315.

(5) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 100.

أولاً: لا طاعة للوالدين في معصية الله. **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {8}** (1)

فهذه ارتقاءات ببر الوالدين توضح عظمة هذا الدين، ورحمة الخالق سبحانه وتعالى بالوالدين حتى في حال كفرهما.

وقد جعل القرآن الكريم للوالدين المشركين حقاً.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها قال: « نعم » (2).

قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {8}** (3).

حتى مع محاولة التكفير والصد عن طريق الله وعن الإيمان، مع هذا يقول: **فلا تطعهما** ولكن **وصاحبهما في الدنيا معروفاً** (4). ويقول سيد قطب في الضلال: (إن الوالدين لأقرب الأقرباء، وإن لهما فضلاً، وإن لهما لرحماً، وإن لهما لواجباً مفروضاً: الحب والكرامة والاحترام والكفالة ... فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية لا الطاعة والاتباع) (5).

والمسلم يحتسب الأجر في الصبر على الأب الضال ويتلطف في نصحه وتبصيره بالحق بالوسائل المناسبة التي لا يشعر الأب بتعالي ولده عليه ولا بانتقاصه له؛ وإنما يشعر الأب بأنها نصيحة ابن معترف بالأبوة موقر ومشفق كما حصل مع إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه في سورة مريم:

وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا {41} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {42} يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا {43} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا {44} يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {45} قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا

(1) الغنكيوت: 8.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، الجزء السابع، كتاب: الأدب، باب: صلة الوالد المشرك، رقم الحديث 862، ص 318.

(3) الممتحنة: 8.

(4) القرضاوي، يوسف: فتاوى معاصرة للمرأة والأسرة المسلمة، ص 165.

(5) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 79.

إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً {46} قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً {47} (1).

فقد استعمل إبراهيم عليه السلام نداء الأبوة في أرق ألفاظه فقال: يا أبت ولم يقل له أنا عالم وأنت جاهل، بل قال إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك وأظهر شفقتة على أبيه وحرصه على سلامته بقوله: يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ولما رفض أبوه الحق وتهدده بالرحم ما زاد إبراهيم على أن قال لأبيه بكل أدب سلام عليك ووعدته أن يستغفر له (2).

وقد جاء في كتاب الدرر المباحة ما يلي؛ تحت عنوان الكبائر: (وإن الكفر لا يحل العقوق، حتى يجب على المسلم نفقة الوالدين الكافرين إذا عجزوا عن الكسب، وخدمتهما وبرهما وزيارتها إلا أن يجلباه إلى الكفر، فيجوز ألا يزورهما حينئذ وينفق عليهما من ماله، فإنه يحاسب على نفقة أبويه، ولا يتركهما لغزو أو حج أو طلب علم، فإن نفقة الوالدين واجبة على الولد ولو كانا قادرين على الكسب (3).

المبحث الثاني

فضل بر الوالدين وقيمتة

المطلب الأول: الأمر بالإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله مباشرة

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً {36} (4).

ولقد روى سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» (5).

وقد ظهر من الحديث النبوي الشريف أن بر الوالدين في منزلة بعد الصلاة مباشرة وقبل الجهاد في سبيل الله تعالى.

(1) مريم: 41-47.

(2) مجموعة مؤلفين: موسوعة فتاوى معاصرة. ج 2، ص 239.

(3) فرفور، عبد اللطيف صالح: فتاوى وقضايا فكرية معاصرة، ص 152.

(4) النساء: 36.

(5) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، الجزء الثامن، كتاب: الأدب، باب: البر والصلة، رقم الحديث 854، ص 315.

وفي شرح هذا الحديث يقول الأستاذ محمد عبد العزيز الخولي: (وكان الرسول ﷺ استنبط ذلك الترتيب من قوله تعالى في وصية الإنسان بوالديه:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ
إِلَيَّ الْمَصِيرُ {14} (1)

فشكر الله بالصلاة، وشكر الوالدين ببرهما، وبرهما بطاعة أمرهما، وتفقد مصالحهما والإنفاق عليهما، وحسن معاملتهما، وخفض الجناح لهما، وأن تقول:

وَاحْفَظْ لهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا {24} (2).

وهل التربية والعطف والرحمة والحب والكد لراحتك والسهر لنومك والشقاء لسعادتك تقابل منك إلا بالبر إلا أن تكون حجوداً كفوراً؟.

وحسبك بياناً لمنزلة الوالدين وإشادة بحقهما أن الله قرن الإحسان إليهما بالأمر بتوحيده في كثير من الآيات وأن الرسول ﷺ لم يأذن لراغب في الجهاد إلا بعد استئذانه من أبويه، وأنه جعل السعي عليهما جهاداً في سبيل الله (3).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: **جاء رجل للنبي ﷺ أجاهد قال: « لك أبوان » قال: نعم، قال: « ففيهما فجاهد » (4).**

وفي هذا الحديث بين الرسول ﷺ أن بر الوالدين يقدم في بعض الحالات على أعظم الأعمال وهو الجهاد في سبيل الله، ومن هذه الحالات أن يكون للإنسان والدان كبيران أو مقعدان يعتمدان في معيشتهم على هذا الابن بحيث يضيعان إذا افتقدها فيقدم الجهاد في سبيل توفير العيش وانتظام الحياة لهما على الجهاد العام بقتال المشركين الكفار ونحوهم وهذا يدل على عظم حق الوالدين على الابن.

وقد قال جمهور العلماء: يجرم الجهاد إذا منع منه الأبوان أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين، لأن برهما فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية، فإذا تعين فلا إذن (5).

(1) لقمان: 14.

(2) الإسراء: 24.

(3) فليفعل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 23.

(4) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، الجزء السابع، كتاب: الأدب، باب: لا يجاهد إلا بإذن الأبوين، رقم الحديث 856، ص 316.

(5) الشهاوي، مجدي محمد: من فاته بر والديه، ص 10.

عن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أردت أن أعزو، وقد جئت أستشيرك؟ فقال: «هل لك من أم» قال: نعم، قال: «فألزمها فإن الجنة تحت رجليها»⁽¹⁾.

المطلب الثاني: طاعة الوالدين

لعظم حق الأبوين، جعل الله ﷻك رضاه في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أرضى والديه فقد أرضى الله، ومن أسخط والديه فقد أسخط الله»⁽²⁾.

حتى أنه ورد في فتاوى الإمام النووي: (للوالدين منع الولدين حج التطوع، ولا يأثمán بذلك، وليس لهما منعه من الحج المفروض، ويأثمán بمنعه، ومن حج بغير إذنهما صح حجة مطلقاً - وإن كان عاصياً في التطوع)⁽³⁾.

وقد جاء في الإحياء: (وأكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض، حتى إن كانا ينتهزان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما؛ لأن ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم، وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك)⁽⁴⁾.

أولاً - رضا الوالدين مقدم على رضا الزوجة:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي امرأة وإن أمني تأمري بطلاقها. فقال ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأمنع هذا الباب أو احفظه»⁽⁵⁾.

قال البيضاوي: (والمعنى - أن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة ويتوسل به إلى وصول درجاتها العالية - هو مطاوعة الوالد وبره سبب في الدخول من أوسط أبواب الجنة، أي من خير أبوابها أو التنعم بذلك، وليس المراد الوسط الحسي، فقد ورد مرفوعاً: «الباب الأوسط مفتوح لبر الوالدين فمن برهما فتح له ومن عقهما أغلق دونه»).

(1) الألباني، محمد ناصر الدين: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ج5، ص 21.

(2) الألباني، محمد ناصر الدين: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ص 778.

(3) مجموعة علماء: موسوعة فتاوى معاصرة، ج2، ص 404.

(4) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، ج2، ص 238.

(5) المنذري، زكي عبد العظيم: الترغيب والترهيب، ص 285.

وقد ظهر من الأحاديث السابقة أن رضا الوالدين مقدم على رغبة الابن في زوجة بعينها وليس في هذا ظلم للابن، لأن الأب لن يختار لابنه إلا ما هو أفضل، ولعل الابن في أحيان كثيرة لا يرى ما يراه الأب ولا يعلم ما وراء ذلك فالنساء كثير ولعل الله يوفق الابن الطائع إلى الزواج من امرأة هي أفضل من التي اختارها، ويضع في قلبه لها حباً أكثر، وهو سبحانه يقرب القلوب كيف يشاء⁽¹⁾.

ثانياً - بر الوالدين من الأعمال الصالحة التي تكفر الكبائر:

وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس رضي الله عنه أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبى أن تنكحني، وخطبتها غيري فأحببت أن تنكحه فغرت عليها فقتلتها فهل من توبة؟ قال: أمك حية؟ قال: لا. قال: "تب إلى الله وتقرّب إليه ما استطعت" قال: فسألت ابن عباس رضي الله عنه: لم سألت عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدة⁽²⁾. وقد جاء في منظومة الآداب عن الإمام أحمد رضي الله عنه قال: (بر الوالدين كفارة للكبائر) وقد ذكره ابن عبد البر عن مكحول⁽³⁾.

ثالثاً - بر الوالدين من الأعمال التي يتوسل بها إلى الله ويدعو بها.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « بينما نحن ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا بها لعله يفرجها عنكم. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتني ولي صببية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني وإني نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب وقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ... فإن كنت تعلم أي فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء. ففرج الله عنها فرجة فأروا السماء..... »⁽⁴⁾.

(1) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 48.

(2) الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، ص 711.

(3) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 77.

(4) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، الجزء الثامن، كتاب: الأدب، باب: إجابة دعاء من بر والديه، رقم الحديث 858، ص 316 - 317.

هذه صورة كيف كان الابن يعامل والديه عند الكبر فيقدمهما على أبنائه وزوجته إلى الدرجة التي ظهرت في الحديث الشريف.

ونقارن بما وصل إليه الحال اليوم من ابن يعيش مترفاً عنده من متع الحياة ويترك والديه رهن المرض أو الحاجة إلى الرعاية أو المال. متعللاً بمتطلبات أبنائه وحاجات الحياة العصرية.

وقد صادفني يوماً رجل يبحث عن دواء مقو لابنه فإذا هو يطلب أفضل شركة تصنع هذا الدواء. ثم يطلب دواءً آخر، ولفت نظري بحثه عن الأرخص فإذا به يقول: إن هو إلا لأمي.

رابعاً- والبر مدعاة لاستجابة الدعوة:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن خير التابعين رجل يقال له أويس وله والده وكان به بياض فمردته فليستغفر لكم** » (1).

وأويس هذا رجل أسلم وحجزه عن اللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة أمه إليه. فكان يبره لها مستجاب الدعوة.

المطلب الثالث: جزاء البر والعقوق في الدنيا

أولاً- من بر أباه بره ابنه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **عقوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل منه ذلك محققاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد علي الحوض** » (2).

ثانياً- لبر الوالدين البركة في العمر والرزق:

عن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من بر والديه طوي له زاد الله في عمره** » (3).

الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن تضييعه في غير ذلك، ومثل هذا ماء جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم تقاصر أعمار أمته بالنسبة

(1) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين يحيى بن شرف، ج5، كتاب: فضائل الصحابة، باب:

من فضائل أويس القرني، رقم الحديث 2542، ص 2494.

(2) المنذري، زكي عبد العظيم: الترغيب والترهيب، الجزء الثاني، ص 286.

(3) المرجع نفسه.

لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر، وحاصله أن صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة وللصيانة عن المعصية، فيبقى بعد الذكر الجميل كأنه لم يمض (1).

ثالثاً- دعوات الوالدين مستجابة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن، دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم » (2).

ومن خلال قصة جريج العابد التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي أثر صلواته على إجابة نداء أمه فدعت والدته أن لا يموت حتى ينظر في وجه المومسات، واستجيب دعاؤها.

المطلب الرابع: حكم النفقة على الوالدين

النفقة يوجبها: القرابة، الملك، الزوجية

والوالدان أعلى درجات القرابة، ودليل وجوب النفقة على الولد لوالديه قوله تعالى: **وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {15}** (3).

وقوله: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ {15}** (4).

وليس من المعروف ولا من الإحسان تركهما بغير إنفاق إذا احتاجا. فعن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أن أولادكم هبة من الله وأموالهم لكم إن احتجتم » (5).

ومن شروط وجوب النفقة على الولد لوالديه: يسار الولد:

(1) الشهاوي، مجدي محمد: من فاته بر والديه، ص 21 - 22.

(2) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة: الجامع الصحيح لسنن الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما ذكر في دعوة المسافر، رقم الحديث 3448، ص 325.

(3) لقمان: 15.

(4) الأحقاف: 15.

(5) الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، المجلد السادس، ص 137.

الموسر من فضل قوته وقوت عياله في يومه وليلته ويبيع في النفقة على الوالدين ما يباع في الدين من عقار وغيره، فإن لم يكن للابن مال، وكان قادراً على الكسب فإنه يكلف بالكسب للإِنفاق عليهما⁽¹⁾.

ومن الشروط أن لا يكون للوالدين ما يكفيهما ويلحق بالوالدين الأجداد والجدات. وهل تكافى النفقة سنوات العمر والجهد والمال الذي بذله الوالدان حتى يصل الابن إلى ما وصل إليه.

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه قال: « لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه »⁽²⁾.

إن الإنسان لا يستطيع أن يكافى والده مهما فعل فقد قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن لي أمّاً بلغ منها الكبر وإنما لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية فهل أدت حقها؟ قال: لا ... كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاؤك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها⁽³⁾.

المطلب الخامس: بر الوالدين بعد موتهما

لا ينتهي البر بانتهاء حياة الوالدين فهو مستمر بعد موتهما قال مالك بن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله صلوات الله عليه إذا جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أيرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما»⁽⁴⁾.

- الاستغفار لهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه : « إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك »⁽⁵⁾.
« استغفار الولد لأبيه من بعد الموت من البر »⁽⁶⁾.

(1) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 45.

(2) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح النووي، مج 3، كتاب العتق، باب فضل عتق الوالد، رقم الحديث 1510، ص 1565.

(3) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص 44.

(4) أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، ج 5، كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين، رقم الحديث، 5142، ص 222.

(5) الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، مج 4، ص 129.

(6) الألباني، محمد ناصر الدين: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ص 118.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له »⁽¹⁾.

ثانياً- الوفاء بنذرهما وقضاء ما عليهما:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادَةَ الأنصاري استفتى النبي ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فأفتاه أن يقضيه عنها فكانت سنة بعد⁽²⁾.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت. قال: فقال: « وجب أجرك وردها عليك الميراث » قالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: «صومي عنها» قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها. قال: «حجي عنها»⁽³⁾.

ثالثاً- إكرام صديقهما:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه إن ملّ ركوب الراحلة، وعمامة يشدّ بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار إذ مر به إعرابي، فقال: أأنت ابن فلان ابن فلان؟ قال: بلى. فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا، والعمامة قال: اشدد بها رأسك. فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك أعطيت هذا الإعرابي حميراً كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن من أبر الصلة صلة الرجل أهل ود أبيه من بعد أن يولي » وإن أباه كان صديقاً لعمر رضي الله عنه⁽⁴⁾.

رابعاً- زيارة قبرهما:

من البر أن يزور الولد قبر والديه بعد وفاتهما، ويستحب أن تكون في يوم الجمعة.

المبحث الثالث: عقوق الوالدين

المطلب الأول: معنى العقوق

(1) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح النووي، مج 3، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الحديث 1931، رقم 1688.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري: الجزء الثامن، كتاب: الإيمان والنذور، باب: من مات وعليه نذر، رقم 1547، ص 540

(3) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي، ج3، كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت، رقم 1149، ص 1163.

(4) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين بن شرف النووي، ج 3، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، رقم الحديث 2552، ص 2506.

عقوق الوالدين: هو الخروج عن طاعتها وإهمال حقهما، وفعل ما لا يرضيهما، وإيذاؤهما ولو بكلمة أف، أو نظرة تحقير لهما، أو تهوين لشأنهما.

وقد شدد القرآن الكريم في أمر العقوق فنهى عن التأفف والضحجر فقال: **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** {23} (1).

وتوعد من قال ذلك في سورة الأحقاف بقوله تعالى: **وَالَّذِي قَالَ لِيُوالِدَيْهِ أَفٍّ لَّكُمَا اتَّعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ حَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلِكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** {17} (2).

إلى أن قال الله ﷻ: **أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** {18} (3).

فقد حكم على من يفعل ذلك بالخسران. ونهى رسول الله ﷺ عن عقوق الوالدين: عن عبد الرحمن بن جبيرة بن نفيير الحضرمي عن معاذ بن جبل قال: أوصاني رسول الله ﷺ: **« لا تعق والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلِكَ ومالكِ »** (4).

وقد قال ابن سيرين: من مشى بين يدي أبيه، فقد عقه إلا أن يمشي فيميط له الأذى عن طريقه. ومن دعا أباه باسمه فقد عقه إلا أن يقول يا أبت.

قال الحسن: منتهى القطيعة أن يجافي الرجل أباه عند السلطان أي يخاصمه.

(وحرم الإسلام الانتساب لغير الوالدين تحريماً قاطعاً في الكتاب والسنة وانعقد على ذلك

الإجماع

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً {5} (5)

(1) الإسراء: 23.

(2) الأحقاف: 17.

(3) الأحقاف: 18.

(4) المنذري، زكي الدين عبد العظيم: الترغيب والترهيب، ج3، ص225.

(5) الأحزاب: 5.

« من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، لعنه الله والملائكة والناس أجمعون، ولا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً » (1).

المطلب الثاني: حكم عقوق الوالدين

إن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر لحديث رسول الله ﷺ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. قلنا: بلى يا رسول الله قل: الإشراف بالله وعقوق الوالدين... وكان متكئاً فجلس... فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور... فما زال يكررها حتى قلنا: ليته يسكت» (2).

ومن الكبائر سب الوالدين ولعنهما فقد ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: « من الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه » (3). وفي هذا الحديث يتعجب الصحابة من شتم الرجل والديه... فهذا ليس شيئاً عادياً فكيف يسيء الرجل إلى من أحسن إليه، وليس هناك إحسان كما إحسان الولد لوالده. أولاً- توبة العاق:

إن رحمة الله وسعت كل شيء وقد شملت العاق لوالديه، فمن عاق والديه، ثم ندم على ذلك فعليه أن يبرهما إن كانا على قيد الحياة، ويكثر من الاستغفار حتى يقبل الله توبته، وحتى لو توفي والداه، فإن لديه الفرصة فعليه أن يكثر من الاستغفار لهما. المطلب الثالث: جزاء العقوق

أولاً- ملعون من عاق والديه:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « لعن الله من ذبح لغير الله ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من سب والديه » (4).

(1) الفرفور، عبد اللطيف صالح: فتاوى وقضايا فقهية معاصرة، ص 154.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، الجزء الثامن، كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر، رقم الحديث 860، ص 317.

(3) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي، ج 1، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، رقم الحديث، 90، ص 235.

(4) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي، ج 4، كتاب: الأضاحي، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم 1978 ص 2051.

ثانياً- تعجل العقوبة للعاق:

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « كل الذنوب يؤخر الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات »(1).

ثالثاً- لا يقبل عمل العاق:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة لا يقبل الله حجك منهم صرفاً ولا عدلاً: عاق ومنان ومكذب بقدر »(2).

رابعاً- عقوق الوالدين أهم أسباب حرمان الجنة ودخول النار:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة لا ينظر الله ﷻ إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه والمرأة المترجلة والديوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان بما أعطى »(3).

عن أبي مالك: قال ﷺ: « من أدرك والديه أو أحدهما، ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله واسحقه »(4).

المطلب الرابع: آداب المسلم مع أبويه

لقد أوصى الإسلام الأبناء بحسن الأدب مع آبائهم، ومن الأدب توقير الأب، عن طاووس قال: إن من السنة أن توقر أربعة: العالم وذا الشيبة والسلطان والوالد. ومن الأدب عدم المشي أمام الأب وعدم الجلوس قبله وعدم دعائه باسمه، ومن الأدب القيام له وتقبييل يده.

عن السيدة عائشة قالت: "ما رأيت أحداً أشبه سمياً وهدياً برسول الله ﷺ من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها كانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام من مجلسه وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها"(5).

إذاً يجوز تقبيل يد الوالدين باتفاق المذاهب الفقهية الأربعة لرجحان أدلته ويسن القيام لهما على وجه الاستحباب(1).

(1) المنذري، زكي عبد العظيم: الترغيب والترهيب، ج3، ص 300.

(2) الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، المجلد 2، ص 285.

(3) المرجع نفسه، ص 284.

(4) المرجع نفسه، ص 242.

(5) النووي، يحيى بن شرف الدين: الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام، ص42.

ومن الأدب الاستئذان قبل الدخول على الوالدين: قال رجل للنبي ﷺ: «أستأذن على أُمِّي؟ قال: «نعم». قال: إني معها في البيت. فقال له رسول الله ﷺ: «أحب أن تراها عريانة؟» قال: لا. قال: «فاستأذن عليها»⁽²⁾.

ومن الأدب حسن المخاطبة والكلام معهما:

جاء في كتاب "الدرر المباحة في الحظر والإباحة" للنجلاوي ما نصه: (ومن حقهما - أي الوالدين - أن يتملق لهما، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يجهر لهما بالكلام، ويطيعهما فيما أباح الدين، فإن رضاء الله في رضاهما، وسخطه في سخطهما، ولا ينتمي إلى غير والديه استنكافاً منهما فإنه يوجب اللعنة).

ومن أدب الابن مع أبويه: عدم الكذب عليهما، وعدم اللوم لهما إذا عملا ما لا يعجب، والقيام بخدمتهما، وطاعتهما في غير معصية الله، وإجابة دعائهما سريعاً، وعدم مجادلتهما أو تخطئتهما، ولكن يبين لهما الصواب بأدب، والإنصات لحديثهما، وعدم رفع الصوت عليهما، وعدم العبوس وتقطيب الجبين أمامهما، وعدم إزعاج من يجبان حتى لا يكون في ذلك إزعاج لهما، وعدم تناول الطعام قبلهما، مع إكramهما في الطعام والشراب، وعدم التدخين أمامهما، وعدم الجلوس في مكان أعلى منهما، وعدم مد الرجل في حضرتهما، ومساعدة الأم في البيت والأب في العمل، والتلطف عند طلب شيء منهما وشكرهما عند أخذ الشيء منهما، وعذرهما إن منعاً شيئاً، وعدم الإكثار من الطلب، وعدم السفر بغير إذنتهما، وطلب رضاهما، وعمل ما يسرهما كطلب العلم والاجتهاد فيه، والمحافظة على ما لهما وعدم أخذ شيء منه بغير إذن، والمحافظة على سمعتهما، ومشاورتهما في كل عمل، والاعتذار لهما في حال الاضطرار إلى المخالفة، وعدم معاندتهما، عدم البخل بالنفقة عليهما، والإكثار من زيارتهما وتقديم الهدايا لهما.

عدم تفضيل الزوجة أو الولد عليهما، والتوفيق بين الزوجة والوالدين إن حدث خلاف مع تقديم الهدايا للجانبين سراً.

عدم التكبر على الانتساب إلى الأب مهما وصل الابن وارتفع⁽³⁾.

(1) الفرفور، عبد اللطيف صالح: فتاوى وقضايا فقهية معاصرة، ص154.

(2) المرجع نفسه، ص155.

(3) فليفل، حسن زكريا: بر الوالدين، ص57-58.

المبحث الرابع تربية الأبناء البررة

يقول الله ﷻ: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ {6}** (1).

إن تربية الطفل التربية القويمة وتأديبه على الأخلاق الحسنة والقيم الإسلامية والقيام بمسؤولياتنا كأباء برعاية الأبناء كما أمر الدين الحنيف، لنصل إلى ما يرضي الله عز وجل وما يقر به أعيننا، فلا أروع من شعور أن يكون الابن قرة عين، وقد علمنا الله عز وجل كيف نطلب ذلك منه بالدعاء.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا {74} (2).

والطفل يولد وفيه استعداد للتخلق بأي خلق والتعود بأي عادة دون أن يكون ذا خلق محدود أو عادة معينة، وفي وسع التربية أن توجه استعداداته حيث تريد فالعادة تعمل على أن تخلق في الطفل صفات جديدة تحدد سلوكه وسلطانها يتحكم في جميع أعماله صغيرها وكبيرها. وما الإنسان إلا مجموعة عادات عملية وعقلية وخلقية منظمة إما لسعادته أو لشقائه.

والعادات إما حسنة وهي التي تساعد على تقدم الفرد جسماً وعقلاً وخلقاً وإما سيئة وهي التي تعوق تقدم الفرد والمجتمع.

وأول ما يجب أن يتجه إليه المربي هو غرس العادات الحسنة في بداية نشأة الطفل لتأصل في نفسه وتصبح سجية فيه (3).

ولنحقق ذلك لابد من عدة أمور:

المطلب الأول: حسن اختيار الأم

إن الأم الصالحة تربي أبنائها على محبة الله ورسوله وطاعته وعلى الأخلاق الحسنة. (إن ما يتعلمه المرء من والدته في الطفولة يظل في ذاكرته طيلة حياته، والأشياء التي تظل فترة أطول في ذاكرتنا هي كلمات أمهاتنا والأمثلة التي يقدمها لنا. وما تقدمه الأمهات من انطباعات

(1) التحريم: 6.

(2) الفرقان: 74.

(3) سليمان، مهيجة بيومي: إلى الأمهات في تربية الطفل منذ الولادة إلى قبيل البلوغ، ص 132.

تعد عاملاً عظيماً في تكوين عادات وسلوك الفرد، إن أمهات الرجال العظام في كل العصور قد أَرْضَعْنَ أطفالهن تثقيفاً جيداً منذ الطفولة⁽¹⁾.

والطفل يتأثر بالتيار البيئي السائد في منزله، وكلما كان الأبوان متفاهمين على نمط وأسلوب حياة معينة، وكلما كانت الأم واعية بمسئولياتها وواجباتها إزاء زوجها وأطفالها... وكلما كانت حريصة على إيجاد الجو الهادئ المليء بالدفء والحنان والعطف مستخدمة من سيرة رسول الله ﷺ وصحبه، المنهل الذي تنهل منه في كل موقف من المواقف التي يمر بها الطفل؛ كلما أدى ذلك إلى ثبات كيان الطفل النفسي والانفعالي. والعكس نجده في الطفل الذي يفتقر لمثل هذه البيئة نتيجة لاختلاف الاتجاهات الأبوية⁽²⁾.

والقدوة الحسنة التي يقدمها الأبوان. هي خير وسائل التربية، ذلك أن الطفل في صغره يعد والديه المصدر الأساسي لاستقاء ما يعينه على الحياة فإذا كان المصدر صافياً من شوائب الانحراف، خالياً من أدران الفساد، كان كالمنبع النظيف الذي يرسل الماء الفرات⁽³⁾.

إذاً لا بد للطفل من أسرة بل من أم تكون نموذجاً متحركاً تترجم كل ما تعلمته وما خبرته من الحياة إلى سلوك مادي يلمسه طفلها.

ولكي تكون الأم قدوة ونموذجاً رفيعاً لما تلقته من القيم والمبادئ وما تصوره من المثل ومكارم الأخلاق، لا بد لها أن تكون صورة حية تعكس حقيقة السلوك الذي تنادي به وتحث ابنها على ضرورة الالتزام به، حتى لا يقع طفلها في تناقضات خطيرة، ويختلط عليه الأمر وتلبس عليه الحقائق والمفاهيم، فلا يستطيع وقتها، ولا يعد قادراً على التمييز بين الزائف والصحيح⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: غرس العقيدة وتأصيلها

أولاً- غرس العقيدة وتأصيلها وتعويد الأبناء الطاعة والعبادات

يلقن الطفل عند ولادته كلمة التوحيد فتكون أول ما يفتح عليه لا إله إلا الله وتغرس العقيدة السليمة في نفس الطفل بوسائل عدة أهمها انبعاثها من نفس القائمين على تربية الطفل، فحرارة

(1) كيم ايل، سونغ: واجبات الأمهات في تربية أطفالهن، ص 14-15.

(2) صابر، خيرية حسين طه: دور الأم في تربية الطفل المسلم، ص 107.

(3) ناجي، عبد الغني أحمد: الأمومة والطفولة في الإسلام، ص 41.

(4) صابر، خيرية حسين طه: دور الأم في تربية الطفل المسلم، ص 107.

العقيدة تنبعث من نفس صادقة إلى نفس غضة صافية، فتستقر فيها استقراراً يصعب معه اقتلاعها، فالوالدان ذوا العقيدة السليمة يكون أولادهما ذوي عقيدة سليمة⁽¹⁾.

ومن ثم يوجه الطفل إلى شكر الله تعالى على نعمه، ليعتاد الشكر على النعمة وإسداء المعروف، وليسهل جذبته إلى العبادة، ونعوده العبادة ونعلمه ثمارها، فيُعلم الصلاة وهو ابن سبع سنوات، ونشجعه على المثابرة والمحافظة عليها.

وقال الغزالي: (وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه، وكل من هو أكبر منه سناً من قريب أو أجنبي، وأن ينظر إليه بعين الجلالة والتعظيم).

فبتعليم الابن طاعة الله ﷻ والعمل بأوامره والانتهاز عن ما نهى عنه سنصل إلى ولد بار، يرضي خالقه، ويحترم الكبير، ويحسن إلى الآخرين.

ثانياً- إطعام الأبناء من المال الحلال وعدم التجرؤ على الحرام أمامهم: ذلك أن المال الحرام يجر بصاحبه وأكله إلى المعاصي والهلاك. قال ﷺ: « من نبت لحمه على السحت فالنار أولى به »⁽²⁾.

المطلب الثالث: الرفق بالأبناء. إن التربية الصحيحة ما هي إلا عملية بناء للقيم وبذلك فهي تشجيع الأبناء على الخلق

النبيل وهي عملية توجيه لا تأنيب وعقاب وعنف. لقد امتدح القرآن الكريم أسلوب الرسول ﷺ في الترغيب: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {159}**⁽³⁾.

ومن هذه الآية الكريمة نستدل على أن العنف والقسوة والغلظة مرفوضة في توجيه وتنشئة الطفل⁽⁴⁾.

كذلك الإكثار من لوم الابن والإسراف في التوبيخ يفقده الثقة بالنفس، فنقتل فيه شعوره ومواهبه، التي منحها الله له، وتوجه سلوكه توجيهاً ضاراً، فيفقد الهمة والثقة.

(1) ناجي، عبد الغني أحمد، الأمومة والطفولة في الإسلام، ص 42 - 43.

(2) ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، مسند الفاروق وأقواله على أبواب العلم، ج 1، ص 343.

(3) آل عمران: 159.

(4) تركية، بهاء الدين خليل: علم الاجتماع العائلي، ص 272.

فلا بد من الاهتمام بأطفالنا كل الاهتمام ونغرس فيهم حب القيام بكل ما يستطيعون القيام به مع مراعاة التشجيع في وقته المناسب⁽¹⁾.

وقد نصح الإمام الغزالي المربيين بقوله: (ولا تكثر القول عليه بالعقاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلا أحياناً).

وقد تعامل النبي ﷺ مع غرائب الشباب؛ فتعامل مع الشاب الذي جاء يستأذن في الزنا باللين والحكمة حتى أخذ بيده إلى النجاة والتوبة، وتعامل مع المشاغبين الذين كانوا يرمون نخل الناس ليأكلوا البلح، وكذلك مع الغلام اليهودي لأخر لحظة من عمره يدعو إلى الإسلام فأسلم بعد استشاره بالعين لأبيه اليهودي. وتعامل ﷺ مع كثير من أصحاب الأخطاء والمعاصي والخمارين وكانوا يخرجون من أمامه راشدين، وله شاهدين، بأنهم ما رأوا معلماً ألين، ولا أحسن تعليماً منه، كلهم عاملهم ﷺ باللين والحكمة وكانت النتيجة إيجابية مائة بالمائة⁽²⁾.

ولا بد من الابتعاد عن تحقير الطفل والحط من شأنه، وعن إطلاق أسماء أو صفات عليه تؤثر في إحساسه بقيمته وثقته بنفسه، لأن هذا السلوك يؤدي إلى روية الطفل لنفسه في الصورة المنحطة التي يرسمها ذويه مما يجد من طاقة الطفل، ويعطل إحساسه الذاتي بإمكاناته وطاقاته ومن الأجدى أن يمارس الوالدان الانتقاد الفعال بمعنى أن ينتقدا فعل الطفل وليس شخصيته⁽³⁾.

ولا يعني الرفق واللين مع الابن تدليله والعمل على إرضائه وتلبية كل رغباته لأنه ينشأ عندها إنسان معتمد على غيره في قضاء حوائجه، لا يستطيع مواجهة الحياة بثبات وعزيمة. يريد أن يستأثر بكل ما يقع عليه نظره. يصبح أنانياً حتى يمكن أن يشاحن الغير ليفوز بما لديهم، وقد يصبح مغروراً، مستبداً، متمرداً على الكبار، يطلب السيطرة والنفوذ⁽⁴⁾.

المطلب الرابع: العدل في معاملة الأولاد والمساواة بينهم في العطفة

(1) سليمان، بهجة بيومي: إلى الأمهات في تربية الطفل منذ الولادة إلى قبيل البلوغ، ص181.

(2) عبد الرحمن، جمال: أطفال المسلمين كيف رباهم النبي ﷺ، ص69.

(3) تركية، بهاء الدين: علم الاجتماع العائلي، ص261.

(4) سليمان، بهجة بيومي: إلى الأمهات في تربية الطفل منذ الولادة إلى قبيل البلوغ، ص181.

روى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن أباه أتى رسول الله ﷺ فقال: **إني نخلت ابني هذا غلاماً كان لي. فقال ﷺ: « أكل ولدك نخلته مثل هذا؟ » فقال: لا، فقال ﷺ: « فأرجعه ».**

وفي رواية أخرى قال: **« اتقوا الله واعدلوا في أولادكم »** ثم قال: **« أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟ قال: بلى، قال: فلا إذن »**(1).

ولعل المحافظة على العلاقات الودية السليمة بين الأخوة وعدم إيجاد فرصة للحسد أو الغيرة بينهم لمن أدق واجبات الآباء ومن أولها بالعناية والرعاية. فالجو المنزلي العام والروح التي تسوده والصلة بين الأخوة، كلها تؤثر في حياة الطفل وقد يلازمه ذلك الأثر مدى الحياة(2).

المطلب الخامس: أثر وسائل الإعلام في أبنائنا.

لا بد من الانتباه إلى ما تضعه وسائل الإعلام بين أيدي أبنائنا، لقد أصبح الأطفال أسرى شبكات التلفزة العالمية العابرة الحدود، وربطت شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت" الكرة الأرضية كلها برباط واحد بما يحمله ذلك من ظلم لدولنا، التي لا تستطيع أن توقف أو تحجب ما لا يناسبنا من المضامين الإعلامية.

وحتى إعلامنا المحلي لم يعد على قدر المسؤولية في تعليم القيم واحترام الوالدين بل على العكس ظهر اتجاه يظهر الآباء والمعلمين بمظهر رجعي وأعطى المبرر لاستمراء جدهم والاستهزاء بآراء الآباء والاستخفاف بهم.

عدا عن مظاهر العنف في الأفلام والمسلسلات الأجنبية التي أخذ الأطفال بتقليدها جاعلين من أنفسهم أبطالاً لها.

كذلك لا بد من الانتباه إلى نوعية الكتب والمجلات التي تقع بين أيدي الأبناء وتؤثر سلباً على شخصيتهم ونفسياتهم.

(1) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي، ج3، كتاب: الهبات، باب: كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم الحديث 1623، ص 1675.

(2) سليمان، بهيجة بيومي: إلى الأمهات في تربية الطفل منذ ولادته إلى قبيل البلوغ، ص 181.

الخاتمة

لقد أمر الله عز وجل ببر الوالدين والإحسان إليهما بصورة قضاء يحمل معنى الأمر المؤكد وذلك بعد العبودية والتوحيد مباشرة وذلك لعظم حقهما، وبين لنا الكتاب والسنة أهمية البر وعقوبة العقوق، وجزاء كل منهما في الدنيا والآخرة.

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة في تعليمنا البر والصلة والأدب مع الكبير بشكل عام ومع الوالدين بشكل خاص.

وكان لا بد من الإشارة إلى بعض الأسباب المؤدية للعقوق، فكيف نطالب ابناً لم نر به على الإسلام وقيمه بإتباع أوامر الإسلام فيطيع الله فينا ويمحسن إلينا.

فبر الآباء لأبنائهم بحسن التربية، وعدم العشوائية في تعليم الحياة، والقدوة الحسنة تؤدي بالأبناء إلى البر والتقوى والنجاة في الدنيا والآخرة وتعطي الابن البار الذي هو قرة عين لوالديه في الدنيا والآخرة.

